الفصل الأول

اَلشَّفاعَةُ الْعُظْمَى

- المَوْقف العظيم.
- مَوْقفُ آدَمَ عَلَيه الصلاة والسلام.
- مَوْقفُ نُوحٍ عَلَيه الصلاة والسلام.
- مَوْقفُ إبْراهِيمَ عَلَيه الصلاة والسلام.
- مَوْقفُ موسَى عَلَيه الصلاة والسلام.
- مَوْقفُ عِيسَى عَلَيه الصلاة والسلام.
- مع سيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ.
- شفاعَةُ الرَّسولِ - ﷺ - لِأُمَّتِه.

oeikandil.com

الموقف العظيم

أخرج مسلمٌ في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيامَةِ، فَيَهْتَمُّونَ لِذلِكَ، أَوْ فَيُلْهَمُونَ لِذلِكَ، فَيَقُولُونَ: «لَوِ اسْتَشْفَعْنا عَلَى رَبِّنا، حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكانِنا هذا..» .

***

هذه بدايةُ حديثٍ طويل في الشفاعةِ العُظْمَى لرسولِ اللهِ ﷺ، نقفُ أمامه وقفاتٍ تأمُّليَّةً، نستحضرُ الماضِيَ والحاضِرَ والمُستقبل، برؤيةٍ شرعيَّةٍ و فِقْهٍ دينيٍّ لوجهِ اللهِ وحدَه؛ إظهارًا للحقيقة، ودَعوةً إلى الناسِ بأنْ يعتصِموا باللهِ تبارك وتعالى، ويستمسكوا بالشرع الحنيف..

وقضيةُ البعثِ والحَشرِ والجمعِ لميقاتِ يومٍ معلوم: هي لُبُّ الدِّين والعقيدةِ؛ لأنها تَبْنِي اليقينَ المُطْلَقَ باللهِ وحْدَه وقُدرتِه الكاملةِ وسُلطانِه العظيم.. وتلك القضيةُ – في مفهومِها الشرعيِّ – هي إخراجُ اللهِ تبارك وتعالى الناسَ من قبورِهم ونُؤْوِيهم إلى أرضِ المحشرِ، ليلْقَوْا جزاءَ أعمالِهم التي عمِلوها في الدنيا، ويصِلُوا إلى الخلودِ الأبديِّ في النعيمِ أو الجحيم..

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ

ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١).

في هـذا اليوم يعْتَرِي الخلائقَ الهُمـومُ وينْتابُهم القلقُ وتُحيط بهم الشِّدةُ..

ويبْلُغ الناسَ من الغمّ والكَرْبِ مالا يُطيقون ومالا يحْتملون. فيهتمُّون لذلـك، ويقول بعضُهم لبعض، كما في روايةٍ أخـرى «ألَا تَرَوْن ما أنْتُم فِيهِ ؟ ألَا تَرَوْنَ ماقَدْ بَلَغَكُم؟

أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟!»

ويكونُ هذا القولُ على سبيلِ الإلهام؛ بأن يُلقِيَ اللهُ تباركَ وتعالى في نفوسِ أهل الموقفِ هذا المعنى، فيذهبوا إلى الأنبياءِ رَجاءَ الشَّفاعةِ.

فحِـرصُ أهـلِ الموقفِ على الشـفاعةِ إلْهامٌ مـن اللهِ، وطلبُ الأنبياء للشَّفاعةِ تكريمٌ من اللهِ لهم، وقبولُ الشفاعةِ رحمةٌ من اللهِ لعبادِه فترجِع الشفاعةُ إلى اللهِ كما بدأت منه، ولهذا قال اللهُ جلَّ شأنُه:

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود الآيات ١٠٣ – ١٠٥.

(٢) سورة الزمر الآية ٤٤.

مَوْقف آدمَ عليْه الصَّلاةُ والسّلام

نتابع القولَ فِي حديثِ الشفاعةِ العُظْمى. قال رسولُ اللهِ ﷺ :
«فيَأتُون آدَمَ عليه السَّلام، فَيَقُولُونَ:
أَنْتَ أَبو الخَلْق، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الملائكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ.. اشْفَعْ لَنا عِنْدَ رَبِّكَ، حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكانِنا هذا، فَيَقُولُ : «لَسْتُ هُناكُمْ» فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أصابَ، فَيَسْتَحِيى رَبَّهُ مِنْها».

***

يذهبُ أَهْـلُ الموقف إلى آدمَ عليْه الصلاة والسـلامُ رجاء الشـفاعةِ، ويُذَكِّرونـه بنعـم اللهِ عليه التى تجعلُـه أقربَ إلى اللهِ عـزَّ وجلّ. فآدمُ أبو الخَلْق، وفى رِوَاية «أبو البَشَـر» : خلقَه اللهُ بيدِه تكريمًا له، ونفَخَ فيه من رُوحِه تشريفًا له، وأَمَر الملائكةَ بالسجودِ تحيَّةً له..

والمُـراد بيَدِ اللهِ: قُدرتُه، وبـرُوح اللهِ: رُوحٌ خَلقَها اللهُ تعالى، وقد تكرّر هذا المعْنى فى القرآنِ الكريم، قال جلّ شأنُه:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١).

(١) سورة ص الآيات ٧١ – ٧٤.

ويرُدُّ آدمُ عليه الصلاةُ والسَّلامُ على أهلِ الموقف قائلًا:
«لَسْتُ هُناكُمْ، أَوْ لَسْتُ أَهْلًا لَها، أَوْ لَسْتُ بِصاحِبِ ذلِكَ، أَوْ نَفْسِي نَفْسِي»

كما وردتْ بذلك الرِّواياتُ.. ويُعَبِّرُ عمَّا يراه من أهْوال فيقولُ:
«إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ..»

والمُراد بغضب الله هنا: أهوالُ الموقفِ وشدائدُ المحْشرِ التي أشار إليها القرآنُ الكريمُ في مِثل قوله تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ (١).

ثم يتذكّر آدمُ عليه الصلاة والسلامُ معصيَتَه، فيقولُ:
«إِنَّهُ قَدْ نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُهُ».

ومن المعلوم أنّ معصيةَ آدمَ عليه الصلاة والسلام: نِسيانٌ للعداوةِ بينه وبين إبليس، وأنّ آدم عليه الصلاة والسلام، خُدع بنصيحةِ إبليس، عندما قال، كما حكى القُرآن الكريم:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

(١) سورة الحج الآيات ١ -٢.

﴿ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

فلم يُقدِمْ آدمُ – عليه الصلاة والسلام – على المعصيةِ اجْتراءً على الله، ولا تمرُّدًا على شرْعِه وإنما فعل مافعل من أجل هدفٍ صحيح هو الاستمرارُ فى الطاعةِ، والخلودُ فى الجنةِ، والمَعِيَّةُ مع الله، ولهذا قال جلّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[2].

فخطيئةُ آدم عليه الصلاة والسلام، من باب «حَسَناتُ الأبْرارِ: سَيِّئاتُ المُقَرَّبينَ.» .

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٠ – ٢٢.
(٢) سورة طه الآية ١١٥.

مَوْقِفُ نُوحٍ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ

تابع القولُ فى حديثِ الشفاعةِ العُظمى..

قال رسولُ اللهِ ﷺ : (فَيَقُولُ آدَمُ عليه الصلاة والسلام:
«ولكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ» :
قالَ: «فَيَأْتُون نُوحًا عليه الصلاة والسلام، فَيَقُولُ: «لَسْتُ صُنَاكُمْ» .
فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِى أصابَ، فَيَسْتَحِيى رَبُّهُ مِنْها) ..

***

يرفُض آدمُ عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعاً لأهلِ الموقف ويرى نفسه فى حاجةٍ إلى عفوِ اللهِ ورحمتِه، وإلى من يشْفع له عند ربِّه.

ويقترحُ أن يَذهبَ الناسُ إلى نوح عليه الصلاة والسلام ويصِفُه بأنه أول رسولٍ بعثَه اللهُ تعالى. والمُرادُ أنه أوّلُ رسولٍ بعد الطوفانِ أوْ أوّل رسولٍ بُعِث إلى قوْمٍ كافِرين. فالأنبياءُ قبْل نوح أُرْسِلوا إلى قوم مُؤمنين، مازالوا على الفِطرةِ لم ينشأ فيهم الكُفر. فبِدايةُ الانحرافِ البشرىِّ بعبادةِ الأصنامِ كانت على عهدِ نوح عليه الصلاة والسلام.

فيذهبُ الناسُ إلى نوح عليه الصلاة والسلام ويقولون له – كما فى بعض الروايات : – «يانُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى الأَرْضِ، وَسَمّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اِشفَعْ لَنا إلَى رَبِّكَ.. أَلا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟ ألا تَرَى ماقَدْ بَلَغَنا ؟!»

ووصْفُ نوح بالعبدِ الشَّكورِ جاء في قولِه تبارك وتعالى:
﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (١).
وفي الأثرِ عن السَّلَفِ أن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان يحمد الله على طعامِه وشرابِه ولباسِه وشأنِه كلِّه. فلهذا سُمِّيَ عبدًا شكورًا.
والخطيئةُ التي تذكَّرها نوحٌ عليه الصلاة والسلام، واستحيا ربَّه منها هي دعوتُه على قومِه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢).
وقد دعا نوح عليه الصلاة والسلام على قومِه بعد جهادٍ طويلٍ وصبرٍ كبيرٍ وبأساءَ شديدة. فقد مكث فيهم نبيًّا رسولا ألف سنَةٍ إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل..
ولم تكن تلك الدعوةُ ذنبًا حتى يستحْيِيَ ربَّه منها، وإنما هو هضْمُ النفْسِ، ومعرفةُ عظمةِ الرَّبِّ، وتقديسُ الكبيرِ المُتعالِ..
ويرفض نوح عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعاً ويقول: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.. نَفْسِي نَفْسِي..»

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣.
(٢) سورة نوح الآية ٢٦ – ٢٧

مَوْقِفُ إبْراهيم عليْه الصلاةُ والسّلام

نتابع القــول فى حديــث الشــفاعةِ العُظمى.. قال رســولُ الله ﷺ (فيقول نوح عليه الصلاة والسلام: «وَلكِنِ ائْتُوا إبْراهِيمَ عليه الصلاة والســلام، الَّذِى اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا» فيأتــون إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيقول: «لست هُناكم» ، ويذكر خطيئتَه التى أصابها فيستحيى ربَّه منها) ..

***

يرفض نوحٌ عليه الصلاة والسلام أن يكون شفيعًا لأهل الموْقف ويدعو الخلائــق إلى الذهابِ لإبراهيمَ عليه الصلاة والســلام، ويذكر مؤهِّلاتِه لذلك، وهى: أن الله تبارك وتعالى اتَّخذه خليلًا..

وقد نصَّ القرآنُ المجيدُ على خُلة إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾[1].

والخُلَّةُ هى المــودّة والحُبّ الخالص، لأنها تتخلّل النفسَ وتتوسّــط القلب. فإبراهيم ﷺ بلغ المُنتهى فى الحُبِّ لله تبارك وتعالى..

وقد وُصِف بهذه الخلّةِ أيضًا سيدُنا محمدٌ ﷺ :

(١) سورة النساء الآية ١٢٥.

كما جاء في صحيح الحديث: «أيُّها النَّاسُ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَلِيلًا، ولكِنْ صاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ».

ويأتي النَّاسُ إبراهيمَ عليه السلام ويسألونه الشَّفاعةَ، فيَقولُ: «لَسْتُ أَهْلًا لَها، نَفْسِي نَفْسِي. إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»..

ويذكُرُ إبراهيمُ عليه السلام خطيئتَه أو كذباتِه، فيستحْيِي أن يسأل اللهَ الشَّفاعةَ. وكذباتُ إبراهيمَ عليْه الصلاةُ والسلامُ هي من المَعاريضِ، التي تحتمِل وجْهَيْن. وقد رخَّص فيها الشَّرعُ، وليست ذنْبًا يُؤاخَذ به الإنسان، لكنه عظُمَ النفسِ واستشعارُ عظمةِ الرَّبّ. وهذه الكذباتُ جاءت في صحيح البُخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلَّا ثَلاثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هي قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [1] وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [2].

وقال: بَيْنَا هُوَ ذاتَ يَوْمٍ وَسارَّةُ، إذ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبابِرَةِ، قِيلَ لَهُ: إنَّ ههُنا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فأَرْسَلَ إليْه فَسَأَلَهُ عَنْها، فقَالَ: «مَنْ هذه؟» قال: «أُخْتِي». فأتى سارَّةَ قالَ:

«يا سارَّةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وَإنَّ هذا سَأَلَنِي عَنْكِ، فَأَخْبَرْتُه أَنَّكِ أُخْتِي، فَلا تُكَذِّبِينِي.» فأَرْسَلَ إلَيْها، فَلَمَّا دَخَلَتْ

(١) سورة الصافات الآية ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٣.

عَلَيْـهِ، ذَهَبَ يَتَناوَلُها بِيدِهِ، فَأُخِذَ [1] فَقالَ: «ادْعِي اللهَ لِي وَلا أَضُرُّكِ»، فَدَعَتِ اللهَ، فَأُطْلِقَ..

ثُـمَّ تَناوَلَهـا الثّانِيَةَ، فَأُخِـذَ مِثْلَها أَوْ أَشَـدَّ، فَقـالَ: «ادْعِي اللهَ لِي وَلا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ، فَأُطْلِقَ، فَدَعا بَعْضَ حَجَبَتِه، فقالَ: «إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسـانٍ: إِنَّما أَتَيْتُـمُونِي بِشَـيْطانٍ، فَـأَخْـدَمَـهـا هاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْماَ بِيَدِهِ: مَهْيَمْ (ما الخبر) ؟

قالَتْ: «رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكافِرِ – أَوِ الْفاجِرِ – فِي نَحْرِهِ وَأَخْدَمَ هاجَرَ» قال أبو هريرة : تِلْكَ أُمُّكُمْ يابَنِي ماءِ السَّماءِ .. (أى : أعراب البادية) .

(١) فقبض الله يد الطاغية فشُلَّت

مَوْقِفُ مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلام

نتابع القوْلَ في حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسولُ اللهِ ﷺ : (فَيَقُولُ إبْراهِيمُ: «وَلكِنِ ائْتُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطاهُ التَّوْراةَ» .

فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فَيَقُولُ : «لَسْتُ هُناكُمْ» ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أصابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبُّهُ مِنْها) ..

***

تنحّى آدمُ ونوحٌ وإبراهيمُ عليْهم الصلاةُ والسلام عن طلبِ الشفاعةِ لأهل الموقِف، ووصل الناسُ إلى موسَى عليه الصلاةُ والسلام، وكانت مُؤَهِّلاته عندهم لطلبِ الشفاعةِ هي أن موسى كليمُ اللهِ تبارك وتعالى، وقد أنزل عليه التوراة..وقد جاء هذا الوصفُ لموسى عليه الصلاة والسلامُ في القرآنِ المجيد. فقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ (١).

وقال جلّ شأنُهُ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٢)

وكلامُ اللهِ تبارك وتعالَى صفَتُه القديمة، وحقيقةُ الصِّفَةِ تُفهَم في إطارِ قوله تبارك وتعالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (٣).

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.
(٢) سورة المائدة الآية ٤٤.
(٣) سورة الشورى الآية ١١.

وقوله سُبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (١).

وقد حاول البعضُ أن يقرأ لفظ الجلالة منصوبًا «وَكَلَّمَ اللهَ مُوسى تكْليمًا» على معنى أن موسى هو المُتكلِّم. وهذا معنًى مرفوضٌ وقراءةٌ تتنافى مع قوْله جلَّ شأنُه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (٢).

فأسْند الكلامَ إلى الله تبارك وتعالى صريحًا من غير احتمال فيه.. وينضمُّ موسى عليه الصلاة والسلام إلى طائفة الأنبياء الذين يشْعُرون بالاسْتحْياء من الله تبارك وتعالى، ولا يَرَوْن أنفُسَهم أهْلاً للشفاعة، ويذْكر موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ خطيئته، وهي قتلُ أحدِ المصريِّين الذى اعتدى على أحدِ الإسْرائيليين. وجاء ذكر ذلك فى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣).

إنّ حقيقة الموقف لم يكن قتلًا ولاشُروعًا فى قتل، وإنما كان إنقاذًا للضعيف من أيْدِى القوىّ. فوكْزُ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام للقبطىّ من بابِ دفع الصَّائل الظالم ليحْجزَه عن ظلمه، فهو وكْزٌ صادف أجَلًا..

(١) سورة الإخلاص الآية ٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

(٣) سورة القصص الآيات ١٥ – ١٦.

ومع ذلك ظل موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نادِمًا تائِبا مُستغفِرًا. وقد تاب الله عليْه واجْتباه واخْتاره واصطنعه لنفسه. قال تبارك وتعالى:

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ (١).

وقال جلَّ شأنُه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة طه الآية ١٣.

(٢) سورة طه الآية ٣٦.

(٣) سورة طه الآية ٤١.

obeikandl.com

مَوْقِفُ عِيسى عليه الصلاةُ والسلام

نتابع القولَ في حديثِ الشفاعةِ العُظمى.. قال رسولُ الله ﷺ: (فَيَقُولُ مُوسَى: «وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ». فَيأتُونَ عِيسَى رُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ: فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ».)

***

يتعاقبُ أهلُ الموقف على الأنبياءِ، كلُّ نبيٍّ يُرشِدهم إلى مَن بعده، حتى يصلوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

ومُؤهِّلاتُ عيسى عليه الصلاةُ والسلامُ عند أهلِ الموقفِ لطلبِ الشفاعةِ، هي أنَّ عيسى رُوحُ اللهِ وكَلِمَتُهُ، وقد جاء هذا الوصفُ في القرآنِ المجيدِ في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١).

ووجهُ تسميةِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكَلِمَةِ أنَّ الإرادةَ الإلهيَّةَ العُليا تمخَّضت فيه وخرَقت له النَّواميسَ العامَّةَ للتَّوالُدِ بينَ البشرِ، وشاءَ الله تبارك وتعالى أنْ يَكُونَ فكانَ: والتَّعْبيرُ عَنِ المَفْعُولِ بالمَصْدَرِ شائعٌ في لُغَةِ العَرَب فَهُوَ كَلِمَةٌ بمعنى مُتَكَلَّمٌ بِهِ، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ (٢) أي: مخلوقُ الله.

(١) سورة النساء الآية ١٧١.
(٢) سورة لقمان الآية ١١.

وقد يأتي في لُغةِ العرب الوصفُ بالمصدر بدلا من اسم الفاعل أو الصِّفة المُشَبَّهة للمُبالغة، فيُقال: فلانٌ عِلْمٌ وكَرَمٌ أي: عالمٌ وكريمٌ.. فالكلمةُ في حقِّ عيسى عليه السلام أوْفى وأجْدر، لأنه تكلم في المَهد فهو كلمةٌ بمعنى مُتكلم. ولاشكَّ أن البشرَ جميعاً والكائناتِ كلَّها بإرادةِ الله تبارك وتعالى، وكلمته التكوينيَّة ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ لكن عيسى عليه الصلاة والسلام خُصَّ بكوْنه كلمةَ اللهِ أو رُوحَ اللهِ تشريفًا وتكريمًا. فالإضافة على معنى الاصْطفاء، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ (١).

ويرى عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام أنه ليس أهلًا لطلب الشفاعة. إنّ أهْلَ الموْقِفِ يقولون له: «يا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ - تَعالَى - أَلْقاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ - تَعالَى - فاشْفَعْ لنا إِلَى رَبِّكَ.. «أَلا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ماقَدْ بَلَغَنا؟» فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام : «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ.. نَفْسِي نَفْسِي»

وتُضيف هذه الروايةُ أنّ عيسى عليه السلام لم يذْكُر له ذنبًا، أيْ عملًا خِلافَ الأوْلَى: لأنّ الأنبياءَ جميعًا معْصومون من فِعل الكبائرِ وتعمُّد الصَّغائر؛ فهُمُ القُدوة الكاملةُ للبشرِ، وماورد من إطلاقِ لفظِ الذنبِ أو المعصيةِ على بعضِ أفعالهم فهو من قبيل هضْم النفس، واسْتِشعار عظمةِ الرَّبِّ، ومِنْ بابِ «حَسَناتُ الأبْرارِ سَيِّئاتُ الْمُقَرَّبِينَ» ..

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٣.

نتابع القولَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسول الله ﷺ : (فَيَقُولُ عِيسَى) : «ولكن ائْتُوا مُحَمَّداً ﷺ : عَبْـدًا قَدْ غُفِرَ لَـهُ ماتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِـهِ وَمَا تَأَخَّرَ» . قـالَ : «فَيَأْتُونِى، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّى، فَيُؤْذَنُ لِى، فَإِذا أَنا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً» ..

* * *

- ينتهى المطافُ بأهل المحْشـر إلى سـَيدِنا محمد ﷺ بنصيحةِ عيسى عليـهُ الصلاةُ والسَّـلامُ، إذْ يقول لهم: «ائتُوا مُحَمَّدًا: عَبْـدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ ماتَقَـدَّمَ مِـنْ ذَنْبِهِ وَما تَأَخَّـرَ» فهو ﷺ العبدُ الكامـلُ العبوديةِ لله ربِّ العالمـين. والتعبيرُ بقولـهِ: «قَدْ غُفِرَ لهُ ماتَقَدَّمَ مِـنْ ذَنْبِه وما تأَخَّرَ» . يعنى: التنزيهَ له ﷺ عن كافَّةِ الذُّنوب، فهو مُطَهَّرٌ تطهيرًا..

وفى روايةٍ أُخرى: يقولُ أهلُ المحْشرِ:

«يامُحَمَّدُ، أنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأنْبياءِ، وغَفَرَ اللهُ لك ماتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تـأَخَّرَ.. اشْفَعْ لَنا إلَى رَبِّكَ.. أَلَا تَرَى مانَحْنُ فِيهِ؟؟ أَلا تَرَى ما بَلَغَنا؟!»

فهـو خاتَمُ الأنبياءِ، به خُتِمت السلسـلةُ الطاهـرةُ التى بدأتْ بآدمَ وتغلغلتْ فى كافَّةِ الأزمنةِ والأمكنةِ، قال تبارك وتعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

ويتحمّل رسولُ الله ﷺ الشفاعةَ لأهلِ الموقف، وَهِيَ الشفاعةُ العُظمى التي يبدأُ عَقِبَها الفصلُ بين الخلائقِ وحسابُهم، ويقولُ: «أنا لَها...»

ويستأذِنُ الرسولُ ﷺ على ربِّه لطلبِ الشفاعةِ بإلهامٍ من الله عزَّ وجلّ، فيُؤذن له، ويخرُّ الرسولُ ﷺ ساجداً لربِّه.

وفي روايةٍ: «فَانْطَلِقُ.. فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي.. ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عليه شيئاً لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي».

وهذا الحَمْدُ والثَّناءُ: قَبْلَ السُّجُودِ وَأَثْنَاءَهُ وَبَعْدَهُ. ففي روايةٍ «فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ (أي الْحَمْدُ) الآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا..»

وهذا الحمدُ المُلْهَمُ يعقُبُه النِّداءُ الإلهيُّ: إرْفَعْ رَأْسَكَ يامُحَمَّدُ، قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فيتوالى الحمدُ من رسولِ الله ﷺ بتعليمٍ إلهيٍّ وفتحٍ ربّانيٍّ..

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

شَفاعةُ الرَّسُولِ لأُمَّتِه ﷺ

تتابع القولَ فى حديثِ الشفاعةِ العُظْمَى..

قال رسول الله ﷺ: (فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّى.. فَيُؤْذَنُ لِى.. فَإِذا أَنا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ ساجِدًا.. فَيَدَعُنِى ماشاءَ اللهُ.. فَيُقال: [يامُحَمَّدُ.. إِرْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعْ.. سَلْ: تُعْطَهْ.. اِشْفَعْ: تُشَفَّعْ]

فَأَرْفَعُ رَأْسِى، فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه رَبِّى.. ثُمَّ أَشْفَعُ.. فَيَحُدُّ لِى حَدًّا.. فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ.. ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ ساجِداً.. فَيَدَعُنِى ماشاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِى..

ثُمَّ يُقالُ: [إِرْفَعْ رَأْسَكَ يامُحَمَّدُ..

قُلْ: تُسْمَعْ، سَلْ: تُعْطَهْ.. اِشْفَعْ تُشَفَّعْ:

فَأَرْفَعُ رَأْسِى، فَأَحْمَدُ رَبِّى بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه، ثُمَّ أَشْفَعُ.. فَيَحُدُّ لِى حَدًّا.. فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، قالَ: فلا أَدْرِى فِى الثَّالِثَةِ.. أَوِ الرَّابِعَةِ.. قالَ: فَأَقُولُ: «يارَبِّى، مابَقِىَ فِى النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَىْ: وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ» ..)

* * *

بَعد الشفاعةِ العُظْمَى لِفصلِ الخِطابِ بيْن الخلائق، والمَقامِ المحمودِ لرسولِ اللهِ ﷺ الذى يَحْمَدُه فيه الأوَّلون والآخِرون: تبدأُ شفاعةُ الرسولِ لأُمَّتِه..

وتمُـرُّ هذه الشـفاعةُ بمراحِلَ، فـي كلِّ مرحلةٍ يأخُذ الرسـولُ ﷺ مجموعـةً من أهـلِ النارِ ويُدْخِلُهم الجَنَّةَ ويسـتمرُّ هكـذا مراتٍ ثلاثًا أو أربَعًا، حتَّى لايَبْقَى فِى النَّارِ إلَّا من يخْلُد فيها وهُمُ الكُفَّار..

وجاءت روايَةٌ فى حديثِ الشَّفاعةِ العُظْمَى تُفيد أنَّ هناك مجموعة من أُمَّةِ الإسـلام، تسْبِق هذه المَراحِلَ، وتخْتَصُّ بالذين لاحِسـابَ عليْهِمْ.. فيأْخُذُهُمُ الرسولُ ﷺ مِنْ أَهْلِ المَحْشرِ إلَى الجَنةِ مُباشرةً. وجاء فِى هذه الرِّواية أنَّ هؤلاءِ الذين لاحِسـابَ عليْهِمْ يدْخُلون الجنَّةَ من بابها الأيْمَن وأنَّ هذا البابَ وابِـعٌ جدًّا.. قال عليه الصلاةُ والسـلامُ: (فَأَرْفَعُ رَأْسِـى فَأَقُـولُ: «يارَبِّ، أُمَّتِى أُمَّتِى.» فيُقالُ: [يامُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسـابَ عَلَيْهِ، مِنَ الْبـابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُـرَكاءُ النَّاسِ فِيما سِوَى ذلِكَ مِنَ الأَبْوابِ] ..

والَّـذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إنَّ مابَيْنَ المِصْراعَينِ مِنْ مَصارِيعِ الجَنَّةِ: لَكَما بَـيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَما بَيْنَ مَكَّـةَ وَبُصْرَى.» والمِصراعُ: جانبُ البابِ.. وهَجَرَ: مَدينةٌ عظيمةٌ فى البحْرين وهى غيْرُ هَجَرَ المَشـهورةِ بصناعة القِلالِ، فهى إحْدى قُرَى المدينةِ.. وبُصْرَى: مدينةٌ بيْنها وبيْن دِمَشْقَ ثلاثُ مراحِلَ وبيْنها وبيْنَ مكَّةَ مسيرَةُ شَهْرٍ..